لا يجب بالضرورة أن يُؤكل السمك الصغير

بقلم - هارون يحيى:

نجد في النموذج الاقتصادي الذي نشهده اليوم أن الغني يزداد غنى في حين يزداد الفقير فقراً. ومع ذلك، فإن هذا النظام لا يعمل من تلقاء نفسه، وعلى الرغم من أن الاقتصاديين يطلقون أسماء مختلفة على النظام الاقتصادي الحالي، إلا أنه توجد قاعدة واحدة لهذه الأوضاع وهي الداروينية الاجتماعية. وهي تلتزم بالفكرة التي تدور حول أن الحياة هي مكانٌ للصراع وأن الناس لهم الحرية في فعل أي شيء يريدونه كي يتمكنوا من البقاء والفوز في هذه البيئة «الوحشية».

ولا تزال الرأسمالية المتوحّشة شيئاً جلياً في مجتمعات اليوم. وتستخدم وسائل قاسية في جوانب عدة ولكن خطأها الأكثر أهمية هو أنها تعترف بعدم وجود حدود لفكرة الاستغلال أو القضاء على المؤسسات التجارية الأضعف أو الأفراد الأكثر فقراً. وبفصح التعبير الشهير «السمكة الكبيرة تأكل السمكة الصغيرة» عن هذا الموقف بشكل جيد إلى حدٍ بعيد. خلال القرن العشرين واجهنا نموذجين اقتصاديين رئيسين وهما:

1- نموذج الاقتصاد الليبرالي الذي يستند إلى الملكية الخاصة والسوق الحر.

2- نموذج الاقتصاد الاشتراكي الذي يستند إلى ملكية الدولة والاقتصاد المُخطط مركزياً.

بينما فشلت النماذج الاشتراكية وانتهى بها الحال وقد تسبّبت في فقر لا داعي له، كانت القاعدة الرأسمالية «دعه يعمل، دعه يمر» هي التي جلبت الرخاء والنجاح للمواطن العادي. وعلى الرغم من ذلك، فإن التجارة الحرة وحدها ليست كافية كي تحقق الرخاء للجميع، بينما تزداد الفجوة اتساعاً بين الفقراء والأغنياء. ولتجنّب فساد مثل ذلك، يجب على الحكومات أن تقوم بالإصلاحات الاجتماعية وتتخذ التدابير الضرورية من أجل مساعدة الفقراء والأطفال والعاطلين عن العمل، وهو الأمر الذي يمكنها القيام به.

وكما يشير اسمها، فإن الداروينية الاجتماعية هي أيديولوجيا تستند إلى الطرح الذي قدّمه تشارلز داروين في كتابه أصل الأنواع. وكان هربرت سبنسر، وهو مفكّر بريطاني وأحد المؤيدين للداروينية الاجتماعية، هو من أدخل حُجة داروين سيّئة السمعة المعروفة بـ «البقاء للأصلح» للحياة الاقتصادية. الأب المؤسس للداروينية الاجتماعية، هربرت سبنسر، تبنى فكرة أن الشخص الفقير هو المسؤول عن فقره وهو صاحب الخطأ هنا، ولا يجب على أي شخص أن يساعده من أجل التخفيف من وضعه الصعب. وبالمثل، فإن غنى شخص ما يرجع إلى نجاحه هو، حتى لو جنى ثروته من خلال طرق غير أخلاقية. لذلك، وكما هو متوقع، فإن المروّجين البارزين للداروينية الاجتماعية معظمهم من المستثمرين. ومن خلال هذه العقيدة المعتمدة مؤخراً، فإن صعودهم المشكوك فيه داخل مجال الأعمال والمجتمع من خلال طرق غير أخلاقية ليس مُستنكراً، وذلك لأن هذه الأعمال متوافقة مع «الحسابات العلمية» و«قانون الطبيعة».

ويأخذ مصطلح «الصراع من أجل البقاء»، وهو المصطلح الذي طوّره سبنسر بشكل كبير، أشكالاً عدة في أجزاء مختلفة من العالم، بما في ذلك عمليات القتل الجماعي. على سبيل المثال، إرنست هيجل، عالم الأحياء الداروينى الألماني، اعتقد أن البيض متفوقون على الأفارقة واليهود. كما أنه كان أول من روّج لفكرة تحسين النسل، وهي نتيجة طبيعية للداروينية في ألمانيا. توفي هيجل في عام 1919 ولكن هتلر تبنّى آراءه التي أدّت إلى إقامة مخيّمات التعقيم، ووفاة الآلاف من الناس الذين لا ينتمون إلى «العرق الآري». وكان النظام الداروينى مرة أخرى هو السبب الذي أدى إلى الحربين العالميتين الأولى والثانية.

الخطوة الأولى التي يجب اتخاذها من أجل منع مثل هذه الأيديولوجيات القاسية، سواء كانت الشيوعية أو الرأسمالية المُفرطة أو الفاشية، هي القضاء على الأسباب الجذرية لهذه الأيديولوجيات، والتي تمثلها الداروينية على المستوى الفكري. السبب الرئيسي للبؤس الذي يعيش فيه العالم اليوم هو نقص الإيمان بالله. لذا، فمن المهم أن يعمل المؤمنون وأهل الحكمة على الكفاح الفكري ضد المادية والإلحاد. يجب أن يحل التمسك بالأخلاق استناداً إلى الإيمان بالله محل الفهم الداروينى، وهو الأمر الذي من شأنه أن يحل

الكثير من القضايا. منذ طورت الداروينية الاجتماعية فكرة أن «السمكة الكبيرة تأكل السمكة الصغيرة» والقضاء على الضعيف والتنافس الشديد بين الناس، فإن الأخلاق المُستندة إلى الإيمان بالله من شأنها أن تُعزّز من وجود الرحمة والحماية والتضامن والتعاون والتشارك بيننا. يجب أن نتذكر دائماً أن السمك الصغير لا يجب أن يُؤكل بالضرورة، وبدلاً من ذلك فإن السمك الكبير يجب عليه أن يحميها.

كاتب تركي

https://web.archive.org/web/20171218202156/http://www.raya.com/news/pages/abb3f968-49e4-4848-89ab-38b3d924977f

https://www.harunyahya.info/makaleler/buyuk-balik-illa-ki-kucuk-baligi-yutmaz-85902_5470